١١

سر العبقرية

وقف طريف على ساحل « الريفيارا » الجميل يناجى البحر ، ويصغى إلى لحن أمواجه ، كأن ذلك اللحن صدى يتكسر على شط لبنان من أمواج ، وكأن تلك الأمواج صدى شوقه ، وحنينه إلى وطنه الذى لم يغرب قط من فؤاده ولم يفارق خياله فانتقل بالذكرى من شاطىء « نيس » إلى شواطىء بيروت وجعل يطوف بخواطره فى بقعة اقتطعت فلذة من قلبه ، ويدغدغ فيها طلول أفراحه وأحزانه ، تلك الطلول التى لها فى نفسه من السحر ما يحول بألوان من البؤس نعيما دونه كل نعيم . وإنه لهائم ، فوق رمال بيروت ، وفى أحراجها ، فى مساجد طرابلس وجنائنها ، فى مسقط رأسه وكرومه وعينه وبساتينه ، وبيادره وحقوله ، إذا صوت رخيم الجرس حلو النبرات معذوب

الأنغام يخرج من قلبه إلى قلبه ، ويدعوه إلى من لم يترك الدهر له من أسرته كلها إلا إياها ، فغادر الحاضرة الفرنسية بعد انقضاء دورة نوفمبر ، وودع الحي اللاتيني غائر النفس حيران سادراً تتقاذف قلبه العواطف بين الشرق والغرب ، فيتحرق شوقا إلى من يلقى وحزنا على من فارق .

ولما أرست الباخرة فى مرفأ بيروت وانتثر فوق ظهرها وعلى جنباتها العائدون يرقبون من سارع من الأهل للقائهم ، ظل طريف واجماً محزوناً يسائل الزمن عن أمه وأبيه وأخواته وأخيه . فلا يجد إلا الغصص جواباً ، وإلا أدمعا حيرى تضطرب فى عينيه لا تنساقط خجلا من الخجل ولا تستقر من فرط الألم .

أما أنا فقد أخذت أفكر بمصيره فى المجتمع بعد أن رافقته فى المدرسة من كتاب القرية الأول ، إلى معهد الحقوق والسوربون ومدرسة العلوم السياسية ، فلم أجد عملا ما يستطيع القيام به غير ما ينصرف اليه العمى عادة

فى مجتمعنا من مغادمة الموتى . وما إن أطلعته على مادار فى خلدى حتى استشاط غضبا وانبرى يرد علىّ بعنف :

ما للسانك لا يحمل إلى إلا سخفا ووهما كأن دماغك مستودع الأوهام ، وكأن تلك الأوهام أصداف تحجب عنك اللآلىء ، فلا ترى فى العمى غير العمى كالبوم لايفتنها من الكون الفسيح غير الخَرِب ، أتظن أن الرجال الذين يسوسون الأمم والشعوب ويتدبرون العالم وشؤونه إنما يفعلون ذلك بعيونهم ، أتظن أن الفاروق والمنصور وصقر قريش وقاهر الفرنجة ومطرقة الغضب الالهي وأندادهم من أولى العزم الذين بدلوا سنة تكوين الأمم ورفعوا مجتمعاتهم فوق المجتمعات شرفا وعمرانا ، إنما قطعوا أغلال البشر وسلاسل الدهور بعيونهم .

إن على وجه الأرض ملايين من العيون المفتحة ، غير أن قادة الأمم ومسيرى الشعوب قليلون ، وأقل منهم أولئك الأبطال الذين يصنعون التاريخ ، وما أبغي أن

أقول لك إنى سأسير فى موكب هؤلاء الخالدين ؛ وإنما أريد أن تعلم أن قيمة الرجال لا تقاس بعيونهم بل بتلك الشعلة المتقدة فى أدمغتهم والعواطف المستعرة فى صدورهم والعزائم الملتهبة بين جوانحهم ،وبكلمة واحدة بذلك الروح الجبار الذى نفخه الله فى أبدانهم وكون منه جوهر بنى الانسان ، وإذا كان هذا الجوهر هو وحده سر عبقرية الانسان وابداعه فأى شيء يصد الأعمى عن استثمار مواهبه بل أى شيء يجيز حرمانه وحرمان المجتمع شهى ثمارها ما دام هذا الجوهر يشمله كما يشمل سواه ؟

أليست الحياة كلها فى استثمار المواهب . إن الأعمى الموهوب يستطيع أن يمارس جل الأعمـــال الاجتماعية ويتفوق فى ممارستها تفوق المبصر الموهوب متى استعار فى المسائل النظرية الصرف عينى مؤمن أمين .

أليس بشار بن برد — وإن لم يعجب طه حسين — أمير الشعراء المخضرمين ومن أضخم من أنجب مجتمعنا

العربى من شعراء . وصاحب غير مجد ورسالة الغفران شيخ من فكر وقال شعرا أو نثراً فى زمانه . والدكتور طه حسين ، وإن كان لى عليه بعض المآخذ أعظم من بحث منا وأنتج فى تاريخ أدبنا العربى .

قلت : أنت تعتقد إذاً أن كل أعمى أحد هؤلاء العبقريين ؟

قال : أجل ، إن كنت تعتقد أن كل مبصر هو أبو نواس أو ابن رشد أو أبو الفرج ، فالعمى يختلفون فى مواهبهم ومؤهلاتهم كما يختلف المبصرون . فاذا كان من المبصرين العبقرى المتفوق ، والغبي الخامل المغرق فى غباوته وخموله ، فان بين العمى كذلك الغبي الخامل والألمعى المبرز على النظراء والأقران ، فلا تخلط بين أعمى وأعمي ولا تتهم العمى بما اتهمت به المرأة فى القرون الغربية المظلمة من أنها ما خلقت إلا أداة لمتعة الرجل ولا بما اتهم به الرقيق قديماً من أنه كالحمار حيوان داجن ولا بما اتهم به سواد الشعب الفرنسى قبل الثورة

من أنهم يحملون فى عروقهم دما أحمر فاسداً يغاير فى لونه وخصائصه ما يجرى فى عروق الاشراف والأكليروس من دم أزرق طاهر ، ولا بما أتهم به البشر قاطبة فى مملكة يهوذا المنقرضة والامبراطورية الألمانية الحديثة من أنهم ما خلقوا إلا للطاعة والانقياد لشعب اسرائيل المختار وللشعب الألمانى المتفوق ، بل حسّن رأيك فى العمى وتيقن أنهم لا يقلون عنك شأناً ، وأنه لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور .

وإذا أبيت الا التشبث بوهمك واعتقدت أن ماقلته لك إن هو الاخيال شاعر ، أو منطق مفكر ، أو حلم وسنان ، فافعل ولك فى إمام الفلاسفة وجهابذة التفكير أسوة حسنة .

ألم يكن المعلم الأول سخيفاً حين ادعى أن الرقيق دون البشر ، وأقطاب الفكر اليهودى والألمانى سخفاء فيما ذهبوا إليه من آراء ونظريات عرقية ؟ فالسخف كما ترى

ليس وقفا عليك بل هو قانون عام يسرى حكمه على العلماء والجهلاء ، الأذكياء والأغبياء من بنى آدم لغرورهم وإدعائهم معرفة كل شيء على الرغم من اعترافهم بأن قصور عقلهم وضيق مداركهم لايتناسبان وضخامة طموحنا العلمى ومراميناالفلسفية . وما أصدق من قال فى هذا الصدد « لا حد للسخافة البشرية » .

قلت عفواً يا طريف ! ما توخيت أذاك ولا النيل من كرامتك ومقدرتك ولا يفوتك أنك قافل إلى مجتمع متخلف لا يزال يجحد المواهب ، ولا يؤمن بالكفاءة ، إلى مجتمع قوامه أسر ما زال أكثرها منبت اللؤم والجهل والغباوة والاجرام والحسد ، إلى مجتمع ثنايا مرتقاه الدس والتملق والصغار ، إلى مجتمع يغاير مزاجه مزاجك وهواه هواك ومذهبه فى الحياة مذهبك ، إلى مجتمع ماخلقت له ولا خلق لك ، إلى مجتمع يوشك أن يكون رمس العبقرية والطموح .

فتنهد من أعماق صدره تنهد العائد من أوروبا إلى

آسيا ثم قال : لكن لا تنس كذلك ياصديق أن من انطلق في الحياة من المهد وحده وأقام على صم الجلاميد روضة فينانة متنوعة الغراس زاهية الورود دانية المجانى ، لا يرفع راية الانحدار ، فاذا كان علم العلم والوعى والحياة لما يخفق بعد فى أفق مجتمعنا العربى ، وإذا كان قلب الوليد العربى الكبير لا ترفرف رايته اليوم فى الشرق كما ترفرف راية الحضارة الغربية فى الغرب ، فان راية الله تخفق فى كل مكان وأن العزم والايمان اللذين أودعهما صدرى يخفقان فى قلبي وكل جوارحى وإذا وقف اللؤم والجهل والغباوة والحسد دون ما يستهوى هواى ويطمئن إليه ضميري ، وإذا استخف مزاجى بجشع الانسان وشقاء نعيمه ، وتعالى عن غروره وحضيض رقيه ، واترع إبائى وفراغ يدى بالهم والأحزان فؤادي ، فعقل كل ذلك جناحىّ وحال دون انطلاقى فى المجتمع كما انطلقت في المدرسة وحلقت ، فانى سأزحف زحفاً وسأبلغ بعون الله مهما طال الزمن ما

أطمح إليه ، فأحلق فى فلك لن تبلغه عيناك وأفنى هنالك فى موكب الطموح والمثل الأعلى قرير النفس سعيداً ، فأخلد غير مكترث بالزمان والانسان فى ضمير الزمان والانسان بل فى ضمير الوعى والوجود .

وهبطنا الأرض فى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٣٦ ، فصافحت طريفا مودعاً وأنصرفت مع أهلى إلى أهلى وانصرف طريف .